عوامل نشأة علم الكلام

لقد نشأ علم الكلام شأنه شأن سائر العلوم الإسلامية ، بعد الصدر الأول للإسلام ، حيث لم يكن هناك تدوين للعلوم ، ولقد نشأ علم الكلام نتيجة لعدة عوامل سنتناولها بالتفصيل فيما يلى ، وسوف نركز فيها على عامل القرآن الكريم ، حيث إن هذا العلم قد هوجم باسم القرآن ، وهذا ما دعى إلى أن يحاول المتكلمون إيجاد مبرر لهم فى قيام علم الكلام ،وأنه مؤيد من القرآن ويستند إليه ، وأيضا سوف نهتم بالعوامل الخارجية ، لأنها تعد فى نظرنا أهم الأسباب ، وذلك لمخالطة المسلمين لأصحاب الديانات المخالفة ، وأيضا وقوفهم على الأفكار الأجنبية ، وكانت دافعا لهم للمقاومة ومحاولة إبطاله ، وليس معنى ذلك أننا نقلل من أهمية العوامل الأخرى ، فإن هذه العوامل جميعا تتكامل فى سبب ظهور هذا العلم . وليس من شأن عامل لوحده أن يظهر علم الكلام ، وسوف نقسمها إلى عوامل داخلية وعوامل خارجية ، وعامل يرجع إلى طبيعة العقل البشرى ذاته .

أولاً – العوامل الداخلية :

١ – القرآن الكريم :

يعد القرآن الكريم المصدر الأول للدين الإسلامى، ومنه استقى المسلمون معارفهم، وعليه قامت علومهم الميتافيزيقية والأخلاقية والتشريعية (١) .

وبالنسبة لعلم الكلام نجد هذه الحقيقة واضحة وذلك عند النظر والتأمل فى آيات القرآن ، فإذا كانت القضية الأساسية التى يدور عليها مبحث علم الكلام هى قضية التوحيد ، فإننا نجد أن القرآن قد اهتم بذلك كثيرا ، ولقد أشار إلى ذلك فخر الدين الرازى عند تفسيره للآيتين (١٩ ، ٢٠) من سورة

---

(١) Seyyed Hossein . Ideals and realities of Islam, p. 50 .

البقرة ، فقال : « إن الآيات الواردة فى الأحكام الشرعية أقل من ستمائة آية ، وأما البواقى الواردة فى الأحكام الشرعية والنبوة والرد على عبدة الأصنام والمشركين » .

وبعد أن ذكر معاقد الأدلة فى القرآن مما يدل على وجود الصانع وعلى صفاته وعلى النبوة والمعاد قال : « وأنت لو فتشت علم الكلام لم تجد فيه إلا تقدير هذه الدلائل والذب عنها ، ودفع المطاعن والشبهات القادحة فيها » وقال بعد ذلك : « وأما محمد عليه الصلاة والسلام ، فاشتغاله بالدلائل على التوحيد والنبوة والمعاد أظهر من أن يحتاج فيه إلى التطويل »[1] .

ولقد حاول الأشعرى أن يبرهن بأن الكلام فى أصل التوحيد مأخوذ من كتاب الله ،وهو قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾[2] ، وهذه الآية هى أساس دليل التمانع عند المتكلمين ، وكذلك القول فى سائر الكلام فى تفصيل فروع التوحيد والعدل ، إنما هو مأخوذ من القرآن ، وكذلك القول فى جواز البعث .

ويحاول الأشعرى أن يبين أن مباحث المتكلمين ومصطلحاتهم التى تقوم على الحجج العقلية وعلى القياس لها أصل فى القرآن ، ويضرب لذلك أمثلة تؤكد ذلك وتوضحه ، وعلى سبيل المثال : ففى استحالة الشبه لله تعالى : نجد قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾[3] . وهذا أصل نفى الجسمية وأن الجسم له نهاية ، وأيضا فى قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ ﴾[4] إشارة إلى الجزء الذى لا ينقسم ، إذ محال إحصاء ما لا نهاية له ، ومحال أن يكون الشىء الواحد ينقسم ، لأن هذا يوجب أن يكون شيئين .

---

(١) نقلا عن كتاب تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، للشيخ مصطفى عبد الرازق ، ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

(٢) الأنبياء : ٢٢ . (٣) الشورى : ١١ .

(٤) يس : ١٢ ، والنبأ : ٢٩ .

وهكذا يحاول الأشعرى أن يثبت أن مصطلحات المتكلمين وأدلتهم العقلية لها أصل فى الدين ،وتعتمد على ما ورد فى الكتاب ، وأنها إنما هى تأكيد لتلك الأصول وإقرار للعقائد[1] .

والواقع أن القرآن قد أفاض فى الدعوة إلى النظر العقلى ، وجادل المخالفين فى العقائد ، وسنعرض فيما يلى لنماذج من تلك الدعوة والجدل فى القرآن :

١ - نجد أن أول آية من آيات القرآن تحث على العلم والمعرفة ، فيقول الله تعالى : ﴿ اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذى خَلَقَ ﴾[2] . فهذا أول أمر ينزل من السماء يأمر بالقراءة والتعلم ، وبذا تكون أول آية تعلن بدء التعلم لأمة أمية .

٢ - رفع شأن العلم والحكمة ، ففى قوله تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[3] ، وأيضا قوله تعالى: ﴿يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ، ومَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيراً كَثيراً ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾[4] ، وفى هذا تعظيم لشأن العلم والحكمة .

٣ - الحض على البحث والنظر فى الآيات الكونية الظاهرة ، وما فيها من دلائل على وجود الله القادر العليم ، وما فيها أيضا من أنعم الله سبحانه على الإنسان ، وأن من لم يستعمل عقله لإدراك هذه الحقائق ، فهو ظالم لنفسه ، فهو قد عطل عقله عن النظر والتأمل فى الكون ، يقول الله تعالى : ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ . وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ، وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا ، إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[5] .

---

(١) الأشعرى ،رسالة استحسن الخوض فى علم الكلام ، منشورة مع كتابه « اللمع» . (٢) العلق : ١ .

(٣) المجادلة : ١١ . (٤) البقرة : ٢٦٩ . (٥) إبراهيم : ٣٢ - ٣٤ .

٤ - طالب القرآن معتنقيه بضرورة التأمل فى المعجزة الكونية الظاهرة ·

ولقد رد أكثر من مرة أولئك الذين يطالبون بمعجزة خارقة للطبيعة ، كأن تتنزل عليهم الملائكة أو ينزل عليهم كتاب من السماء فيلمسوه بأيديهم ، أو يريدون علامات أو آيات تصعقهم وتسحقهم بشدة ، وكلما أرادوا علامات خارقة للطبيعة ، كان القرآن يلفت أنظارهم إلى الطبيعة الظاهرة ، وينبههم إلى أنهم إن لم يدركوا الله فى آثاره الطبيعية الظاهرة العادية ، فكيف يتسنى لهم إدراكه فى الآثار الخفية الشاذة ·

وخلاصة القول : إن القرآن يحول أنظار الإنسان من البحث فى الأمور الخارقة للطبيعة إلى الأمور الطبيعية التى تقود لفهم الحياة والله[١] .

فالقرآن بذلك يريد أن ينتقل بالإنسان من مرحلة الإيمان عن طريق المعجزة الحسية وحدها ، إلى طريق الإيمان القائم على التفكير والعلم والبرهان، وعلى لفت الأنظار إلى الواقع المحسوس،وإلى أن المعرفة تبـدأ من المحسوس ، وقدرة العقل على تحصيل ذلك المحسوس واستيعابه ، هو الذى ييسر له الانتقال من المحسوس إلى غير المحسوس ، فمعرفة الله تعالى تكون عن طريق معرفة آثاره الظاهرة فى الطبيعة ، والتأمل فيها ، ومعرفة ما فى العالم الخارجى من نظام واتساق يدل على مدبر حكيم عليم ·

ولقد رأى الإمام محمد عبده أن النظر العقلى هو الأصل الذى بنى عليه الإسلام ، وأن العقل هو وسيلة الإيمان الصحيح ، وأن منهج القرآن فى إثبات الإيمان هو العقل والفكر وإقامة البرهان ، فهو كما يقول الإمام : « لا يدهشك بخارق للعادة ، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة ، ولا يخرس لسانك بقارعة سماوية »[٢] .

٥ - حديث القرآن عن الحقائق على نحو يثير البحث فهو أحيانا يتكلم على سبيل الحقيقة · وأحيانا على سبيل المجاز ، وهو أحيانا يتكلم عن الشىء

---

(١) khalif ; Islamic Ideolag , p , 27 - 28 .

(٢) محمد عبده ، الإسلام والنصرانية ، ص ٤٧ ، ٤٨

فى ذاته وأحيانا يتكلم عنه من حيث علاقته بغيره ، وأحيانا يشير إلى العلة الأولى تارة وإلى العلل القريبة تارة أخرى[1] ، وكلام القرآن على هذا النحو يدعو إلى النظر وفهم تلك الآيات ، واحتواء القرآن على المحكم والمتشابه يدعو إلى النظر .

٦ - القرآن يذكر الوحى الإلَهى مقرونا إلى « الحكمة » كأنها مرادفة للوحى أو ثمرة لفهمه والتفكر فيه ، بل إن القرآن يعتبر نفسه « ذكرا » و « هدى » و « نورا مبينا » و « فرقانا » بين الحق والباطل ، فالقرآن ليس كتاب دين فحسب ، بل هو كتاب علم وحكمة ، وهو « ذكر حكيم » فيه من حيث هو وحى إلَهى تعليم إلَهى معطى للناس ، به يعلمون من الحقائق ما لم يكونوا يعلمون ، وهذا يعنى التفكر فيه لفهمه ، واستنباط آراء منه ، ولقد وجد علماء الإسلام وحكمائه ، على تنوع ميادين بحثهم فى آيات القرآن مادة علمية وفلسفية يقتبسونها فى مصنفاتهم ، أو شعارا لهم فى بحثهم ، أو معانى يستمدونها ، أو أدلة يستخرجونها [2] .

٧ - ولقد عاب القرآن على المقلدين وعلى الاعتماد على التقليد ، فقال تعالى : ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا ، أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ** ﴾[3] .

٨ - يعيب القرآن على العلم الظنى ، ويدعو إلى ضرورة طلب اليقين ، قال تعالى : ﴿ **وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ، وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ** ﴾[4] .

٩ - احتواء القرآن على أسس ودعائم مناهج البحث العلمى والفلسفى ، من حيث إن أهم شروطه هو النقد ورفض سلطان الغير ، ورفض الآراء التى

(١) محمد عبد الهادى أبو ريدة ، نصوص فلسفية عربية ، ص ٢ .
(٢) محمد عبد الهادى أبو ريدة ، نصوص فلسفية عربية ، ص ٢ .
(٣) المائدة : ١٠٤ . (٤) الجاثية : ٢٤ .

ليس عليها دليل ، ووضع منهج الملاحظة والتجربة فى ميدان الواقع ، وقبول ما يقول عليه البرهان ، ورفض ما عـداه مع التمييز بين ما هو يقينى وغير يقينى ، وما هو راجح وغير راجح ، وما هو نظرية مقررة ، وما هو مجرد فرض واحتمال[١] .

١٠ - كان طريق الأنبياء إلى الإيمان هو التفكير والتدبر ، والأنبياء أسوة للمسلمين يقتدوا بهم ، ولقد عرض القرآن لطريق إيمان ابراهيم عليه السلام ، وأنه كان بعد نظر عقلى ، حين رفض أن يعبد ما يأفل ، فجاء إيمانه بالله تعالى عن يقين ، ثم تدرج الإيمان إلى الاطمئنان حين سـأل ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ، قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبى[٢] .

١١ - أمر الله تعالى باتباع حجة العقل ، فلقد ذكر الباقلانى بأن الله قد أمرنا باستخدام القياس والحكم بالنظائر والأمثال ، فقال تعالى : ﴿ **فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِى الأَبْصَار** ﴾[٣] . وقال : ﴿ **وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِى الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ** ﴾[٤] . وقال تعالى فى الأمر باتباع حجة العقل : ﴿ **وَفِى أَنفُسِكُم ، أَفَلا تُبْصِرُونَ** ﴾[٥] . وغير ذلك من الآيات التى تأمرنا بالاعتبار والاستبصار ورد الشىء إلى مثله ، أو الحكم له بحسب نظيره ، وهذا هو الحكم المعقول والتقاضى إلى أدلة العقول .

ويرى الباقلانى أن أول ما فرض الله عز وجل على جميع العباد ، النظر فى آياته والاعتبار بمقدوراته ، والاستدلال عليه بآثار قدرته، وشواهد ربوبيته ، لأنه سبحانه غير معلوم باضطرار ، ولا مشاهد بالحواس ، وإنما يعلم وجوده وكونه على ما تقتضيه أفعاله بالأدلة القاهرة والبراهين الباهرة [٦] .

ولقد جادل القرآن أرباب المذاهب والملل والأديان المخالفة للإسلام ،

---

(١) د . سامى نصر ، نماذج من الحكمة الدينية عند المسلمين ، ص ٤١ .
(٢) د . أحمد صبحى ، فى علم الكلام ، ص ١٠، ١١ .
(٣) الحشر : ٢ (٤) النساء : ٨٣ . (٥) الذاريات : ٢١ .
(٦) الباقلانى ، الإنصاف فيما يجب اعتقاده ، ص ٢٠ ـ ٢٢ .

وكان هذا الجدل يتناول شئون الاعتقاد ، كالألوهية والتوحيد والرسالة والبعث والآخرة والملائكة والجن والأرواح ، وهى أمور خاصة بالاعتقاد، وأمور خاض فيها المتكلمون .

ولقد اشتمل الجدل العقائدى فى القرآن على أنواع الأدلة العقلية ، ويمكن الإشارة إلى بعض مناحى القرآن فى الاستدلال العقلى .

فنجد فيه الأقيسة الاضمارية وهى الأقيسة التى تحذف إحدى مقدماتها ، ففى قوله تعالى فى الرد على النصارى أن عيسى ابن الله لأنه خلق من غير أب يقول تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ ، خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ . الحَقُّ مِن رَّبِّكَ ، فَلاَ تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾[1] . ففى هذا دليل قوى يبطل ما يدعون ، وهو لم يذكر فيه سوى مقدمة واحدة ، وهى إثبات مماثلة آدم لعيسى ، وطوى ما عداها ، وكأن سياق الدليل هكذا : إن آدم ليس ابنا باعترافكم ، فعيسى ليس ابنا أيضا .

أيضا فى القرآن قياس الخلف وهو الذى يتجه فيه إلى إثبات المطلوب بإبطال نقيضه ، وقد يتجه إليه القرآن الكريم فى استدلاله كاثباته سبحانه وتعالى الوحدانية بقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[2] . ففى هذه الآية الكريمة قد أثبت المطلوب بإبطال نقيضه ، وفيها حذف مقدمات ، وهذا يدل على كثرة الإضمار فى دلائل القرآن الكريم .

أيضا نجد فى دلائل القرآن الكريم السبر والتقسيم ، وهو باب من أبواب الجدل ، يتخذه المجادل حجة لإبطال كلام خصمه بأن يذكر أقسام الموضوع المجادل فيه ، ويبين أنه ليس من خواص واحد منها ما يوجب التى يدعيها الخصم .

أيضا نجد فى القرآن الكريم استخدام القياس التمثيلى . وهو أن يقيس

---

(١) آل عمران : ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) الأنبياء : ٢٢ .

المستدل الأمر الذى يدعيه على أمر معروف ويبين الجهة الجامعة بينهما ، ومن الآيات الكريمة التى استخدمت ذلك · قوله تعالى فى رده على منكرى البعث : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِىَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَن يُحْيِى الْعِظَامَ وَهِىَ رَمِيمٌ · قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ · الَّذِى جَعَلَ لَكُم مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ · أَوَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ، بَلَى ، وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴾[1] · فهنا قياس أمر الإعادة للانسان خلقا سويا فى الحياة الآخرة الذى كان يثير استغراب العرب على الأمر الذى ليس موضع ريب ، ولا مجال للشك فيه ، وهو الإنشاء الأول ·

وطرق القرآن الكريم فى مجادلة مخالفيه كثيرة منها التحدى ، كما تحدى الله سبحانه بالقرآن ، وكما تحدى ابراهيم مدعى الألوهية بأن يأتى بالشمس من المغرب[2] .

وهذه نماذج قد أوردناها للدلالة على استخدام القرآن للجدل ، فى الرد على مخالفيه من أرباب الديانات المختلفة ، إلا إنه كان لا يمد فى حبل الجدل، وأنه قد عرض لهذا الجدل فى العقائد على قدر الحاجة ، دون أن يشجع المسلمين على المضى فيه ، ودعا إلى الأخذ فى هذا الجدل برفق عند الحاجة إلى الجدل [3] .

ومع استخدام القرآن للأقيسة المنطقية فى أدلته · إلا أنه لم يكن مقيدا بصياغة منطقية أو أقيسة أو أشكال معينة · بل كان أسلوبه يعلو قواعد المنطق ويفوقها إحكاما وصدقا ، وهو أولا وأخيرا كتاب فى العقيدة وليس كتابا فى المنطق ، وهو يخاطب كل الأفهام ، وإذا كان أسلوب القرآن أقرب إلى

---

(١) يس : ٧٨ - ٨١ ·

(٢) الإمام محمد أبو زهرة ، تاريخ الجدل ، ص ٥٩ - ٧٥ · عبد الحليم الجندى ، القرآن والمنهج العلمى المعاصر ، ٣٠ - ٥١ ·

(٣) مصطفى عبد الرازق ، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ١١٥ - ١١٦ ·

الأسلوب الخطابى ، إلا أن أسلوبه كله حقا ، لأنه تنزيل من حكيم حميد « فالقرآن يشتمل على أساس مذهب كلامى مكتمل للإسلام ، فهو يصف الله تعالى ، بكل خصائص القدرة والعظمة · فهو تعالى خالق الكائنات كلها ، والسلطان المطلق فى السماء والأرض ، لا وسيط بينه وبين المخلوقات ، هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، إنه الكائن الخالد والحقيقة الأزلية ، وعلى الرغم من أن التعاليم القرآنية تكتسى بطابع خطابى ، فإنها لا تحدد أساس عقيدة مصوغة أو نظاما مغلقا ، وبذلك يبقى على الأجيال اللاحقة أن تضع النموذج لأساس هذه العقيدة ، وتقيم ذلك النظام »(١) .

وهذا يعنى أن المسلمين هم الذين قاموا باستخراج الصيغ الفنية المنطقية للأدلة القرآنية ، ولقد جعل المتكلمون الآيات القرآنية أساسا لاستدلالاتهم ، واستخرجوا منها أدلة عقلية وصياغة منطقية ، واستفادوا بها فى إقامة أدلتهم ·

وعلى سبيل المثال قد حاول الإمام الغزالى أن يستنبط من القرآن الكريم خمسة أشكال من أشكال الاستدلال ، سماها ميزان التعادل الأكبر ، وميزان التعادل الأوسط ، وميزان التعادل الأصغر ، وميزان التلازم ، وميزان التعاند (٢) .

* * *

٢ - الأحداث السياسية :

لقد لعبت الأحداث السياسية فى البيئة الإسلامية دورا هاما فى نشأة علم الكلام ، وذلك لارتباطها بالعقائد ، فلقد حاول كل فريق مناصرة رأيه بأن يوجد له أساسا فى الدين ، فأدى ذلك إلى تأويله للآيات القرآنية بما يتفق مع مذهبه ، وأن يضع من الأحاديث ما يناصر رأيه ، وأدى ذلك كله إلى صبغ العقيدة بصبغة فلسفية ، وفهم للعقيدة ذا مسحة عقلية ، ولن نتناول تلك الأحداث فى تفصيلاتها ، بل بقدر اتصالها بالعقيدة وظهور علم الكلام ·

---

(١) د · إبراهيم مدكور ، المنهج الأرسطى والعلوم الفقهية ، ص ٣٤ ·

(٢) الإمام الغزالى ، الصراط المستقيم « ضمن مجموعة القصور العوالى » ·

يذكر الأشعرى أن أول خلاف حدث بين المسلمين من بعد نبيهم ﷺ اختلافهم فى الإمامة ، فلقد انقسم المسلمون إلى ثلاث فرق ، كل فريق يرى أنه أولى بالإمامة ، فلقد رأى الأنصار أنهم أحق الناس بالخلافة لأنهم أول من آوى الرسول ونصره ، ورأى المهاجرون أنهم أحق الناس بالخلافة لأنهم أول الناس إسلاما ، وكانوا قرشيين فى معظمهم ، ورأى بنو هاشم أنهم أقرب القرشيين إلى الرسول ﷺ ، وهم أحق بالخلافة .

لكن سرعان ما انتهى الخلاف ، وحسم أبو بكر بما ذكر من قول النبى ﷺ : « قريش ولاة هذا الأمر ، فبر الناس تبع لبرهم ، وفاجرهم تبع لفاجرهم » وصدقه الأنصار ، وقال له سعد زعيم الأنصار : صدقت ، نحن الوزراء وأنتم الأمراء ، وبذا انتهى الخلاف بين المهاجرين والأنصار ،وبايعوا أبابكر ، ولم يدم الخلاف بين المهاجرين طويلا ، فلقد بايع على بن أبى طالب أبابكر وإن تأخر فى مبايعته له مدة حياة زوجته فاطمة بنت رسول الله ﷺ .

ولقد حدث خلاف حول عثمان بن عفان ، وأدى ذلك إلى قتله، واختلف فى قتله ، فقال أهل السنة : إنه كان مصيبا فى أفعاله ، قتله قاتلوه ظلما وعدوانا ، وقال قائلون بخلاف ذلك .

ثم بويع على بن أبى طالب ، فاختلف الناس فى أمره ، بين منكر لإمامته وبين قاعد عنه ، وبين قائل بإمامته معتقد لخلافته .

ثم حدوث حرب طلحة والزبير وحربهما لعلى بن أبى طالب ، ثم قتال على ومعاوية وحـدوث التحكيم .

ولما قبل على التحكيم اختلف أصحابه عليه ، ورفض قوم منهم التحكيم وطالبوه بمواصلة القتال ، ولم يجبهم على إلى ما طلبوه ، فخرجوا عليه ، وقاتلوه وسموا خوارج[1] بينما ظل فريق على مناصرة على بن أبى طالب ، وسموا شيعة .

ولقد تطور الخلاف بعد ذلك فى الإمامة ، هل هى بالنص أو التعيين . وهل تتم بعقد أهل الحل والعقد ، وهل هى واجبة أم لا ، وهل هى سلطة روحية فقط أم زمانية فقط أم الاثنين معا ؟

(١) الأشعرى ، مقالات الإسلاميين ، جـ ١ ص ٣٩ - ٦٤

واختلفت الآراء حول ذلك ، وأصبح كل فريق يناصر رأيه ، ويؤول كل فريق ، بما يوافق رأيه ، وسوف نجد نماذج من ذلك عند التعرض لرأى الشيعة والخوارج ·

ولقد أثار هذا الجو المشحون ذو الطابع السياسى جدلا دينيا فلسفيا، حول موضوع الإيمان،إذ أن كل فريق يرمى غيره بالكفر والخروج عن الدين ، ومفارقته لجماعة المؤمنين · فأصبح التساؤل عن الإيمان وحقيقته ومن هو المؤمن ومتى يخرج صاحبه من الإيمان ، وهل هو مجرد تصديق أم أنه يتضمن العمل ؟؟ ولقد أدخل الخوارج والشيعة العمل فى الإيمان ، ليتسنى لكل فريق أن يكفر الآخر ، بحجة أنه لم يأت بشرط العمل ·

وإزاء تشدد الخوارج وتعصبهم ، قامت فرقة أخرى تأخذ وجهة نظر أخرى مخالفة تماما لهم ، هم المرجئة ـ ولقد كانت حركة المرجئة فى مقابل حركة الخوارج التى امتلأت أفكارها بالتعصب وتكفير الجماعة ، فأرجأ المرجئة الحكم على العصاة ، وقالوا إننا لا نخرج أحدا من الإيمان ، واعتبروا صاحب الكبيرة مؤمن ، ولقد كان الهدف الأساسى من إرجاء الحكم على العصاة والمذنبين هو أن لا يجعلوا الناس يتباعدون ، بل يساعدوا الناس على أن يعيشوا معا وجها لوجه ، فيعامل صاحب الكبيرة كمؤمن ومن جماعة المؤمنين الحقيقيين ، وأن دارهم دار إيمان لا دار كفر كما قالت الخوارج [1] .

وبذا أخرج المرجئة العمل من الإيمان ، وفصلت بينهما ، فالعمل هو عمل الجوارح ، والإيمان هو تصديق بالقلب ، وارتكاب الذنوب فى رأيهم لا يهدم العقيدة ولا يخرج الإنسان من حظيرة الإيمان ، بل يجعل صاحبه فاسقا سيتولى الله حسابه وعقابه ·

لكن هناك فريق من المرجئة أسقطوا العمل كلية ،وقالوا : كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، فإنه لا يضر مع الإيمان معصية ·

ولقد كان نتيجة لموقف المرجئة أنهم أرجأوا الحكم فى بنى أمية ، ولم

---

(١) montgomery. ; Free will . p . 44 .

يحكموا عليهم بالكفر كما فعلت الخوارج والشيعة « فحكام بنى أمية فى نظر المرجئة - حتى من نسب إليه الفسق منهم - خلفاء شرعيون ما دام قد انعقدت لهم البيعة · ولهذا وجبت طاعتهم ، من أجل هذا استطاعت المرجئة أن تضمن رضا الحكام من بنى أمية ، وعلى الأقل استطاعت أن تضمن عدم التعرض لهم ، وذلك لأنهم كانوا قد آثروا الابتعاد عن الفتن والخصومات السياسية ، وفضلوا عدم الزج بأنفسهم فى غمارها فلم يكونوا مع على رضى الله عنه ولم يكونوا مع خصومه » (١) .

وهكذا نجد وراء موقف كل من الخوارج والمرجئة من الإيمان والحكم على مرتكب الكبيرة دوافع سياسية ، فلقد رأى الخوارج ما ارتكبه الحكام الأمويون من سفك الدماء وأخذ أموال المسلمين وارتكابهم الكبائر فأعلن الخوارج مبدأهم ، فى تكفير مرتكب الكبيرة ، لأن العمل داخل فى الإيمان ، وأن فاعل الكبيرة قد أخل بشرط العقد فى الإيمان ، فهو بذلك خارج عن الإيمان ، وذلك ليبرروا سياستهم فى الخروج على الحاكم الظالم ، أما المرجئة فكما رأينا أنهم يرغبون فى السلامة ، وأن الخروج على الحاكم يؤدى إلى فتنة تزعزع سلامة المجتمع ، فقالوا بعدم خروج مرتكب الكبيرة من الإيمان ·

ولقد شاعت عقيدة الجبر فى ظل الحكام الأمويين ، فلم يكن تولى معاوية للحكم يلقى رضا واتفاقا من جميع المسلمين ، وغنى عن البيان ذكر معارضة على بن أبى طالب وحروبه مع معاوية ، ومعارضة الشيعة والخوارج لتولى معاوية ، كذلك لم يكن للأمويين فضل السبق فى الإسلام بل كانوا من الطلقاء أو المؤلفة قلوبهم ممن أسلم عقب فتح مكة،«وكان لا بد لهم أن يدعموا سلطانهم ويعوضوا نقص أهليتهم لإمامة المسلمين حتى يكرهوا الناس على طاعتهم بالفكرة إلى جانب القوة ، ولم تكن الفكرة إلا عقيدة الجبر، فوصولهم إلى الحكم وسلطانهم على الناس بل وأعمالهم التى قد يخالف بعضها تعاليم الإسلام،إنما بقدر من الله قد قدره لا حيلة للناس فى دفعه »(٢) .

---

(١) د · يحيى هويدى ، دراسات فى علم الكلام والفلسفة الإسلامية ، ص ٩٧ ·

(٢) د · أحمد صبحى ، فى علم الكلام ، ص ٢٠ ·

ويؤكد هذا ربط القاضى عبد الجبـار بين القول بالجبر والأحداث السياسية ، فذكر أن أول من قال به وأظهره معاوية ، فأظهر أن ما يأتيه بقضاء الله ومن خلقه ، ليجعله عذرًا فيما يأتيه ، ويوهم أنه مصيب فيه (١) .

ولقد كان رد الفعل لشيوع عقيدة الجبر ، أن جاهر البعض معارضين مبدأ الجبر ، وهؤلاء سموا قدرية ، وأولهم معبد الجهنى (المتوفى ٨٠ هـ) الذى أتى الحسن البصرى مع عطاء بن يسار قائلا : يا أبا سعيد ، هؤلاء الملوك يسفكون دماء المسلمين ويأخذون أموالهم ويقولون إنما أعمالنا على قدر الله .

وهكذا نشأت مشكلة الجبر والاختيار فى ظل تلك الظروف السياسية ، ومثل الجبرية جهم بن صفوان ، وهو من أوائل القائلين بالجبر ، ومعبد الجهنى وغيلان الدمشقى من أوائل القائلين بحرية الإرادة .

ومما سبق يتضح لنا أن المباحث الكلامية قد نشأت فى ظل الخلافات السياسية ، وأن مشكلة الإمامة وهى التى لا تمثل أصلا من أصول الدين ، بل هى من فروعه ، عند بعض المتكلمين ، وهى فى لبها مشكلة سياسية ، نتج عنها مباحث حول الإيمان وحقيقته ، وحول علاقة العمل بالإيمان ، ونشأ فى كنفها مبدأ الجبر ومبدأ الاختيار ، وتطرقت الفرق إلى التأويل العقلى لآيات القرآن والأحاديث ، وبدأ النظر العقلى فى أصول الدين ، وتطرف البعض فى آرائه ، وظهرت الآراء المغالية والمتطرفة ، وظهر التأويل الفاسد ، والمعنى الباطن ، ونظرية الإمامة والمهدى المنتظر ، وغير ذلك من الآراء التى تعد غريبة عن الإسلام .

* * *

(١) القاضى عبد الجبار ، المغنى ، جـ ٨ ص ٣ ، ٤ .